

روايةُ ولادة السيدة الزهراء عليها السلام
شبهاتٌ وردود



ضياء السيد عدنان الخباز

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على أشرف بريته وخير خلقه محمد وآله الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين.

بين يديك - قارئ العزيز - إثارات أثارها بعض المعاصرين حول نص ولادة الصديقة الطاهرة الزهراء (عليها السلام)، وقد طلب مني أحد الأصدقاء الأعزاء (حفظه الله تعالى) من أهل سلطنة عمان أن أقيمها وأعلق عليها فأبدت حولها عدة من الملاحظات، ثم لما تم نشرها وافتني عدة من الأسئلة المرتبطة بنفس الموضوع، ولما وفَّقني الله تعالى للإجابة عنها ألحقتها بها، ونظمتها في عقد واحد ضمن هذه الصفحات، وكلُّ الرجاء أن يحظى هذا الجهد المتواضع برضا سيدتنا ومولاتنا الراضية المرضية (عليها السلام) وقبولها، والحمد لله رب العالمين.

ضياء بن المرحوم السيد عدنان الخباز
القطيف / المدارس
ليلة الأحد: ١٤٤٢/٦/٢٤هـ



ولنبداً أولاً - بحول الله وتوفيقه - بذكر نصّ
الولادة، ثمّ نردفه ثانياً بذكر الإثارات التي أثارها بعض
المعاصرين حوله، والملاحظات التي سجلناها عليها،
لتكون الإجابات التي أجبنا بها عن بعض الأسئلة الواردة
إلينا حول النصّ هي مسك الختام.



١/ نصُّ رواية الولادة

وردَ في كتاب (الأُمالي) للشيخ الصدوق قدس سره ما هذا نصّه:

«حدَّثنا الشيخ الجليل أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى ابن بابويه القميّ رحمته الله، قال: حدَّثنا الحسين بن عليّ بن أحمد الصّائغ، قال: حدَّثنا أبو عبد الله أحمد بن محمّد الخليلي، عن محمّد بن عليّ بن أبي بكر الفقيه، عن أحمد بن محمد النّوفلي، عن إسحاق بن يزيد، عن حمّاد بن عيسى، عن زرعة بن محمّد، عن المفضل بن عمر، قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: كيف كان ولادة

فاطمة عليها السلام؟

فقال: نعم، إِنَّ خديجة (عليها السلام) لما تزوج بها رسول الله ﷺ هجرتها نسوة مكة، فكنَّ لا يدخلن عليها، ولا يسلمن عليها، ولا يتركن امرأة تدخل عليها، فاستوحشت خديجة (عليها السلام) لذلك، وكان جزعها وغمها حذرًا عليه ﷺ.

فلما حملت بفاطمة كانت (عليها السلام) تحدّثها من بطنها وتصبرها، وكانت تكتم ذلك من رسول الله ﷺ، فدخل رسول الله ﷺ يوماً فسمع خديجة تحدّث فاطمة (عليها السلام)، فقال لها: يا خديجة، مَنْ تحدّثين؟ قالت: الجنين الذي في بطني يحدّثني ويؤنّسني. قال: يا خديجة، هذا جبرئيل يخبرني أنها أنثى، وأنها النسلة الطاهرة الميمونة، وإنَّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه.

فلم تزل خديجة عليها السلام على ذلك إلى أن حضرت ولادتها، فوجهت إلى نساء قريش وبني هاشم: أن تعالين لتلين مني ما تلي النساء من النساء، فأرسلن إليها: أنتِ عصيتنا، ولم تقبلي قولنا، وتزوجت محمدًا يتيم أبي طالب فقيرًا لا مال له، فلسنا نجيء ولا نلي من أمركِ شيئًا.

فاغتمت خديجة عليها السلام لذلك، فبينا هي كذلك، إذ دخل عليها أربع نسوة سمر طوال، كأنهن من نساء بني هاشم، ففرعت منهن لما رأتهم، فقالت إحداهن: لا تحزني يا خديجة فإننا رسل ربك إليك، ونحن أخواتك، أنا سارة، وهذه آسية بنت مزاحم، وهي رفيقتك في الجنة، وهذه مريم بنت عمران، وهذه كلثم أخت موسى بن عمران، بعثنا الله إليك لنلي منك ما تلي النساء من النساء، فجلست واحدة عن يمينها، وأخرى عن يسارها،

والثالثة بين يديها، والرابعة من خلفها، فوضعت فاطمة عليها السلام طاهرة مطهّرة، فلما سقطت إلى الأرض أشرق منها النور حتى دخل بيوتات مكة، ولم يبق في شرق الأرض ولا غربها موضعٌ إلا أشرق فيه ذلك النور.

ودخل عشر من الحور العين كلّ واحدة منهن معها طست من الجنة، وإبريق من الجنة، وفي الإبريق ماء من الكوثر، فتناولتها المرأة التي كانت بين يديها، فغسلتها بماء الكوثر، وأخرجت خرقتين بيضاوين أشدّ بياضاً من اللبن وأطيب ريحاً من المسك والعنبر، فلفتها بواحدة، وقنّعتها بالثانية، ثم استنطقتها فنطقت فاطمة عليها السلام بالشهادتين، وقالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ أبي رسول الله سيّد الأنبياء، وأنّ بعلي سيّد الأوصياء، وولدي سادة الأسباط، ثم سلّمت عليهن، وسمّت كل واحدة منهن باسمها،

وأقبلن يضحكن إليها، وتباشرت الحور العين، وبشّر أهل السماء بعضهم بعضاً بولادة فاطمة عليها السلام، وحدث في السماء نورٌ زاهرٌ لم تره الملائكة قبل ذلك، وقالت النسوة: خذيها يا خديجة طاهرة مطهّرة زكيّة ميمونة، بورك فيها وفي نسلها، فتناولتها فرحة مستبشرة، وألقتها ثديها، فدرّ عليها، فكانت فاطمة عليها السلام تنمي في اليوم كما ينمي الصبي في الشهر، وتنمي في الشهر كما ينمي الصبي في السنة»^(١).



(١) الأماي: ٦٩٠.

٢/ الإثارات

لقد سُئل بعض المعاصرين عن رأيه ورأي المحقِّق الخوئي طابَّ الله في سند هذه الرواية، فأجاب بجوابٍ يتضمن عدَّة من الإثارات، وإليك نصَّ جوابه:

«هذا الحديث ضعيف بالسند الذي ذكرتموه وورد في كتاب الأمالي، وذلك لعدَّة جهات:

أولاً: إنّ الحسين بن علي بن أحمد الصائغ رجل مجهول، كما لم يوثقه السيد الخوئي (راجع: معجم رجال الحديث ٧: ٤٣).

ثانيًا: إنّ أحمد بن محمد الخليلي الوارد في السند رجلٌ مهمل، لم يذكره أحد من علماء الرجال القدامى، ولا يعتبره السيد الخوئي ثقةً (راجع: معجم رجال الحديث ٣: ١٢٤).

ثالثًا: إنّ محمد (بن علي) بن أبي بكر الفقيه (والظاهر أنه ليس بإمامي) لم يرد له توثيق في كتب الرجال الإمامية، ولهذا لم يذكره السيد الخوئي أساسًا في كتابه، وكلّ شخص لا يذكره فليس له ذكر في الكتب الأربعة ولا في كتب الرجال عند الإمامية.

رابعًا: إنّ أحمد بن محمد النوفلي الوارد في السند رجلٌ مجهول عند السيد الخوئي، واسمه الكامل: أحمد بن محمد بن موسى بن عون بن عبد الله بن الحارث بن نوفل (راجع: معجم رجال الحديث ٣: ١١٤ - ١١٥).

هذا هو حال هذا السند عند السيد الخوئي، والسند عندي ضعيف أيضًا.

خامسًا: إنّ البعد الغيبي في متن الحديث لا أرى فيه مشكلةً، فالله على كلّ شيء قدير، وليس كثيرًا على السيدة الزهراء (عليها السلام) أن تحاط بالكرامة والسؤدد، لكن جاء في متن الحديث أن نسوة مكة هجرن السيدة خديجة، وهذا كلام يمكن التشكيك فيه، من حيث إنّ رجال المسلمين في تلك الفترة لم يكن قد هجرهم المشركون إلا عقب المقاطعة أواخر البعثة وقبيل وفاة خديجة وبعد ولادة السيدة الزهراء (عليها السلام) بسنوات، فكيف يعقل هجران النساء لخديجة لزواجها من محمّد؟! بل المفروض أنّها تزوّجت منه قبل البعثة، فما هو الموجب لهجرانها عند زواجها منه؟! وقضيّة المال سيأتي الحديث عنها.

سادسًا: إنَّ ظاهر هذا الحديث أنَّ النبي محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لم يكن يعرف بعلاقة خديجة مع جنينها، وهذا لا يتناسب مع قول الذين يرون علم النبي بكلِّ صغيرة وكبيرة في هذا العالم، وهذا إشكال نقضي عليهم.

سابعًا: هل يعقل حقًا أنَّ نساء بني هاشم هجرن السيدة خديجة وهجرتها كلَّ النسوة أيضًا حتى عندما احتاجتهنَّ للولادة؟ ألم تكن بينهنَّ أيَّ امرأة قد أسلمت بعد سنوات من البعثة الشريفة؟ ألم تكن في نساء قريش امرأة مسلمة في ذلك الحين؟ ثم لو هجرتها نساء قريش فلماذا تهجرها نساء بني هاشم لزواجها من النبي، وهو من بني هاشم، ولم يقطع رجال بني هاشم علاقتهم بشخص النبي، فكيف تقطع نساؤهم العلاقة بخديجة لأنها تزوّجت شخص النبي الهاشمي؟

وهل يمكن هذا في الثقافة العربية العشائريَّة، وقد كان أبو طالب كفيل النبي وهو زعيم بني هاشم؟ هل كان يرضى بوقوع أمرٍ من هذا النوع؟ وهل كانت امرأة هاشميَّة ستجرؤ - في حياة أبي طالب - على أن تقول هذا الكلام: «وتزوَّجتِ محمَّدًا، يتيِّم أبي طالب فقيرًا لا مالَ له»؟

بل في رواية نقلها لنا الكليني والصدوق في (الكافي ٥: ٣٧٤، وكتاب من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٩٧) تفيد أنَّ الذي طلب خديجة لمحمَّد من أهلها هو شخص أبو طالب ومعه وفدٌ من قريش!! فمن هذا حاله هل تجرؤ نساء عشيرته على فعل شيء من هذا القبيل؟ وإذا كانت لامتها بعض النسوة من صاحبات المال والجاه فهل يعقل أن تكون قد لامتها كلُّ نسوة بني هاشم وقريش ومكَّة بأنَّه فقير؟ أفهل كان كلُّ رجال مكَّة أغنياء بمن في ذلك

أزواج هذه النسوة؟ وهل كان يبلغ الحال بثقافة العرب أنّ المرأة الغنيّة لو تزوّجت بفقر لقاطعها أهلها والناس أجمعين، مع أنّ النصوص تحكي عن موافقة أهلها؟ فأيّ معنى لمقاطعتها لفقره؟! نعم يمكن أن يكنّ قد آخذنها لأيام، لكن بعد أن أصبحت زوجته هل من المنطقي استمرار القطيعة للفقر والحديث عن الفقر واليتم حتى بعد سنوات من البعثة الشريفة والزواج الكريم؟!

ثامناً: تقول الرواية بأنّ نوراً شاع في كلّ بيوت مكّة، بل في كلّ بيوت العالم، وهناك قاعدة في علم التاريخ والحديث والفقه، وقد استخدمها الفقهاء كثيراً بمن فيهم السيد الخوئي، وهي قاعدة: (لو كان لبان) أو قاعدة: (ما تكثر الدواعي لنقله فلا يحتجّ بقليل نقله)، فلو حصل أمرٌ من هذا القبيل ألم يكن من المنطقي أن يتداوله المسلمون فيما بينهم، أو يحتجّون به على المشركين؟

فكيف لم ينقل لنا سوى برواية واحدة ضعيفة السند؟ ولو صحَّ مثل هذا النور في كلّ العالم، فلماذا لم ينقله مؤرّخ أو كاتب أو شاعر أو غير ذلك، وهو ظاهرة غير متكرّرة على خلاف الخسوف والكسوف؟

والنتيجة: إنّ جملة الملاحظات السنديّة والمتنيّة المشار إليها، مع تفرد الشيخ الصدوق بنقل هذا الخبر بسندٍ واحد، يوجب عدم إمكان الاعتماد عليه في إثبات حدث تاريخي من هذا النوع. والعلم عند الله»^(٢).



(٢) مدى صحّة رواية الشيخ الصدوق التاريخية في مولد الزهراء عليها السلام
(hobbollah.com).

٣ / الملاحظات

ولنا حول هذه الآثار عدّة تعقيبات وملاحظات:

- ١- الملاحظة الأولى: إنّ السائل قد سأل عن صحّة سند الرواية، ولكنّ المجيب لم يكتفِ ببيان ضعف السند، بل أغرق في توهين الرواية من خلال إبداء العديد من الملاحظات على متنها، ولا ندري ما هو الهدف وراء ذلك!! وقد كان يكفيه أن يقول إنّ الرواية ضعيفة السند على مباني السيد الخوئي قدس سره وانتهى الأمر، بل كان الأولى به أن يلفت نظر السائل إلى وقوعه في الاشتباه لسؤاله عن قيمة سند الرواية لدى المحقق الخوئي قدس سره، والحال أنّها يمكن تصنيفها ضمن الروايات التاريخية، ومثلها - بحسب

مبانيه طائفة - لا يضرُّ به ضعف السند إن كان له من القرائن ما يشهد بصحّته.

٢ - الملاحظة الثانية: إنّ المجيب قد سجّل ملاحظة على متن الحديث لما تضمّنه من أنّ نسوة مكّة قد هجرن السيدة خديجة (عليها السلام) فقال: بأنّ هذا كلام يمكن التشكيك فيه، وعلّل ذلك بأنّ رجال المسلمين في تلك الفترة لم يكن قد هجرهم المشركون إلا عقب المقاطعة أواخر البعثة وقبيل وفاة خديجة (عليها السلام) وبعد ولادة السيدة الزهراء (عليها السلام) بسنوات، فكيف يعقل هجران النساء لخديجة لزواجها من محمّد (صلى الله عليه وآله)، والمفروض أنّها تزوّجت منه قبل البعثة، فما هو الموجب لهجرانها لها عند زواجها منه؟!!

وهذه الإثارة غريبةٌ عجيبَةٌ، ولو تأمّل صاحبها في نفس فقرات الحديث لما توهمها؛ إذ أنّ مقاطعة النساء للسيدة خديجة

عليها السلام غير مربوطة ببعثة النبي صلى الله عليه وآله ومقاطعة المشركين له، بل هي مرتبطة برفض السيدة خديجة عليها السلام لإرادة نساء مكة وإصرارها على الزواج من النبي صلى الله عليه وآله، كما يشهد بذلك قول نفس الرواية في فقرة لاحقة من فقراتها، وهي: «فوجَّهت إلى نساء قريش وبني هاشم: أن تعالين لتلين مني ما تلي النساء من النساء، فأرسلن إليها: أنتِ عصيتنا ولم تقبلي قولنا، وتزوَّجتِ محمدًا يтим أبي طالب فقيرًا لا مال له».

وقد جاء مزيد من الإيضاح لهذه الفقرة في بعض المصادر الموغلة في القدم، فقد جاء في كتاب (الاستغاثة) لأبي القاسم الكوفي: «إنَّ الإجماع من الخاص والعام، من أهل الآثار ونقله الأخبار، على أنه لم يبقَ من أشراف قريش، ومن ساداتهم وذوي النجدة منهم، إلا من خطب خديجة، ورام تزويجها، فامتنعت على

جميعهم من ذلك؛ فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله غضب عليها نساء قريش وهجرنها، وقلن لها: خطبك أشرف قريش وأمرؤهم فلم تتزوجي أحداً منهم، وتزوجت محمداً يتيماً أبي طالب، فقيراً، لا مال له؟! ^(٣).

❖ تنبيه:

وربما يستفاد من هذا المقطع أنها لم تتزوج بشخصٍ قبل النبي صلى الله عليه وآله؛ إذ لو كانت قد رفضت الزواج بأشراف مكة، وتزوجت بنكرتين - وهما: أبو هالة زرارة التميمي، وعتيق بن عائد المخزومي - قبل زواجها بالنبي صلى الله عليه وآله، لما صحّت مؤاخذتها على زواجها بالنبي صلى الله عليه وآله ليطمه وعدم ثرائه، والحال أنها قد سبق لها الزواج بغيره ممن لا ينافسه في المكانة والشرف، فتأمل.

٣ - الملاحظة الثالثة: قال المجيب: «إنَّ ظاهر هذا الحديث أنَّ النبي محمَّدًا ﷺ لم يكن يعرف بعلاقة خديجة مع جنينها، وهذا لا يتناسب مع قول الذين يرون علم النبي بكلِّ صغيرة وكبيرة في هذا العالم، وهذا إشكال نقضي عليهم».

وأقول: لا يكاد ينقضي العجب من طرح هذا المجيب لمثل هذه الإثارة، فإنَّنا لو قبلناها لقبَلنا أنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾^(٤) ظاهرٌ أيضًا في عدم معرفة الله تعالى بما في يمين موسى ﷺ!!

فإن قيل: إنَّ القرينة الخارجية - وهي علمنا بعالمية الله تعالى - تمنع من حمل الاستفهام في الآية على الاستفهام الحقيقي، فيحمل على الاستفهام التقريري.

(٤) سورة طه، الآية: ١٧.

والمراد منه هو: أن يطلب المُستفهِم من المُخاطَب الإقرار بما يُسأل عنه نفيًا وإثباتًا، وذلك لأغراض مختلفة قد تعود إلى المُستفهِم، وقد تعود للمُخاطَب، وقد تعود للمُستفهِم عنه (كما في المقام).

قلنا نحن الذين نعتقد بعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بكل صغيرة وكبيرة: كذلك يُقال بالنسبة للرواية الشريفة حذو القذَّة بالقذَّة، فالنقض ليس بوارِدٍ علينا.

٤ – الملاحظة الرابعة: قال المجيب: «هل يعقل حقًّا أن نساء بني هاشم هجرن السيدة خديجة وهجرتها كلَّ النسوة أيضًا حتى عندما احتاجتهنَّ للولادة؟ ألم تكن بينهنَّ أيَّ امرأة قد أسلمت بعد سنوات من البعثة الشريفة؟ ألم تكن في نساء قريش امرأة مسلمة في ذلك الحين؟ ثم لو هجرتها نساء قريش فلماذا تهجرها

نساء بني هاشم لزواجهما من النبيّ، وهو من بني هاشم، ولم يقطع رجال بني هاشم علاقتهم بشخص النبي فكيف تقطع نساؤهم العلاقة بخديجة لأنها تزوّجت شخص النبي الهاشمي؟».

وهذه الإثارة كأخواتها في إثارة التعجُّب، فإنها مبنيةٌ على ما توهمه المجيب من أنّ المراد من (نساء مكة وبني هاشم) مطلق نسائهن بمقتضى عموم اللفظ، والحال أنّ العموم ليس مقصوداً قطعاً، وذلك لأمر:

أولاً: إنّهُ ليس من المحتمل - بمقتضى طبيعة الأمور - أن تكون علاقة السيِّدة خديجة بنت خويلد (عليها السلام) بجميع نساء مكة وبني هاشم بمستوى واحد من القرب وعدم التكلف حتى تبعث إليهن جميعاً تطلب منهنّ الحضور عند ولادتها.

وثانيًا: إِنَّ مناسبات الحكم والموضوع - كما يسمِّيها الأصوليون - تقتضي تخصيص العنوان بخصوص مَنْ يمارسن مهنة التقبيل من النساء؛ إذ لا معنى لأن تبعث السيِّدة خديجة عليها السلام إلى غير القابلات.

وثالثًا: إِنَّ نفس التعبير الوارد في الرواية «لتلين مني ما تلي النساء من النساء» يقتضي تخصيص العنوان ببعض النساء، إذ من المعلوم الواضح أنه ليست كل النساء تلين النساء عند ولادتهن، بل خصوص من يمارسن مهنة التقبيل.

وإذا كانت دائرة العنوان ضيقة بهذا المقدار الذي أوضحناه، فأیُّ مانع أن لا تكون بين أفرادها امرأة مسلمة آنذاك؟! وبذلك ينقطع قول المجيب في ملاحظته: (هل يعقل؟ وألم تكن؟ ولماذا؟).

والذي يؤكِّد ما ذكرناه هو جواب النساء لها - والذي نقلته
 نفس الرواية - وهو: «أرسلن إليها: أنتِ عصيتنا، ولم تقبلي
 قولنا، وتزوَّجتِ محمدًا يتيماً أبي طالب فقيراً لا مال له، فلسنا
 نجيء ولا نلي من أمرِك شيئاً»، فإنَّ هذا الجواب - كما هو ظاهر
 - لا يمكن أن يصدر من امرأة مؤمنة بنبوة النبي الأعظم صلَّى الله عليه وآله، مما
 يعني أنَّ اللاتي أرسلت إليهن لم يكنَّ من المؤمنات به.

٥ - الملاحظة الخامسة: قال المجيب: «تقول الرواية بأنَّ نوراً
 شَعَّ في كلِّ بيوت مكَّة، بل في كلِّ بيوت العالم، وهناك قاعدة في
 علم التاريخ والحديث والفقه، وقد استخدمها الفقهاء كثيراً بمن
 فيهم السيد الخوئي، وهي قاعدة: (لو كان لبان) أو قاعدة: (ما
 تكثر الدواعي لنقله فلا يحتجَّ بقليل نقله)، فلو حصل أمرٌ من هذا
 القبيل ألم يكن من المنطقي أن يتداوله المسلمون فيما بينهم، أو

يحتجّون به على المشركين؟ فكيف لم ينقل لنا سوى برواية واحدة ضعيفة السند؟ ولو صحَّ مثل هذا النور في كلّ العالم، فلماذا لم ينقله مؤرّخ أو كاتب أو شاعر أو غير ذلك، وهو ظاهرة غير متكرّرة على خلاف الخسوف والكسوف؟».

والجوابُ عن هذه الإثارة: أنّ الأحداث غير الطبيعية تارة تكون قريبةً من المألوف، أو تحصل في وقت لا يستلزم الالتفات إليها، وتارة تكون بعيدة عنه، وتتحقّق في وقت يستلزم الالتفات إليها، والثانية هي التي تنطبق عليها قاعدة (ما تكثر الدواعي لنقله لا يحتجُّ بقليل نقله) بخلاف الأولى، ولتوضيح ذلك بالمثال نقول:

إنَّ حادثة شقّ القمر إلى نصفين - مثلاً - حادثة بعيدة عن المألوف، ولكنّها وقعت في الليل، والكثير من الناس نيام، فلا

عجب أن لا يكثر نقلها، بينما حادثة رجوع الشمس بعد مغيبها
 لأُمير المؤمنين (عليه السلام) - إذا فسّرنا المغيّب بالإشراف عليه، كما يظهر
 ذلك من شعر السيد الحميري (رحمته الله) (٥) - حادثة وقعت في النهار،
 ولكنها قريبة من المألوف، إذ كثيراً ما يتكرّر أن تحجب الغيوبُ
 الشمس ثم تنجلي فيظهر نورها، وبما أنّ الناس بحسب العادة
 تصرفهم أشغالهم الحياتية عن متابعة السماء والنظر إليها، لذا فلا
 عجب أن لا يلتفت الكثير من الناس للحادثة المذكورة، ولا
 ينقلها إلا مَنْ شهد الحدث، فإنّه كثيراً ما يحدث خفوتٌ لنور
 الشمس يعقبه ظهور وإضاءة، ولا يستدعي ذلك التفات الناس
 وتوجّهِهم.

(٥) قال (رحمته الله) كما جاء في كتاب (الإرشاد): ١ / ٣٤٧:

رُدَّت عليه الشمسُ لما فاتهُ	وقُت الصلاة وقد دنت للمغربِ
حتى تبلَّجَ نورها في وقتها	للعصر ثم هوت هوي الكوكبِ

وتطبيقاً لذلك على المقام نقول: إِنَّ الأقوال قد اختلفت في تحديد وقت ولادتها (عليها السلام)، فالمشهور أنه في يوم الجمعة، وظاهره أنه في النهار، وقول أنه في سحر ليلة الجمعة وآخر ساعة منها، وقد فُسِّرَ بذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(٦)، فقل أي: أنزلنا نور فاطمة^(٧)، ويرى بعض العلماء أَنَّ هذا هو سرُّ استحباب قراءة سورة القدر عشر مرات في تلك الساعة من ليلة الجمعة^(٨).

وكيف كان، فعلى كلا القولين ينحلُّ الإشكال.

أما على الأوَّل: فلأنَّ إشعاع نورها (عليها السلام) في النهار يُفترض فيه أنه كان ظاهرة قريبة من المؤلف، إذ كثيراً ما يخفت نور الشمس

(٦) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٧) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: ٢٢٨.

(٨) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: ٢٢٨.

قليلاً بسبب تراكم السحاب ثم يظهر بقوة مع الانجلاء، ولأنَّ هذه الظاهرة مألوفة فكلُّ مَنْ يشاهد نوراً قوياً سيفسِّره بهذا التفسير، ولن يكون هنالك ما يثيره ليستوجب الالتفات للسَّاء ثمَّ النقل للغير.

وأما على الثاني: فلأنَّ إشعاع نورها عليها السلام في الليل وإن كان ظاهرة بعيدة عن المألوف، إلَّا أنَّه بما أنَّ أغلب الناس في ذلك الوقت كانوا يغطُّون في سبات عميق، لذلك فلا عجب أن لا يكثر نقل القضية، لحدوثها في وقت لا يستلزم الالتفات إليها، فاتَّضح أنَّ هذه الإثارة كسابقاتها في الوهن.



٤/ أسئلة وأجوبة

السؤال الأول: هل "تصح" دعوة السيِّدة خديجة (عليها السلام) إلى القوابل المشركات، مع علمنا بمقام السيِّدة خديجة ومقام السيِّدة الزهراء (عليها السلام) من الطهر والطهارة؟

الجواب:

ويمكن أن يُجاب عن هذه الإثارة بأن يُقال: إنّ السائل قد ادّعى كون القوابل (مشركات)، وهذه الدعوى لم يُقم عليها دليلاً ولا شاهداً، فإنَّ أقصى ما تفيده الرواية هو عدم كونهنَّ من المؤمنات بنبوة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وهذا لا يساوق كونهنَّ مشركات، لاحتمال أنهنَّ كنَّ على الحنيفية، ولكنهنَّ لم يؤمنَّ بنبوة

النبي صلَّى الله عليه وآله، لكونها في بداياتها، ولم يتَّضح أمرها اتِّضاحًا تامًّا، لما هو الثابت من وقوع ولادة الصديقة الطاهرة عليها السلام بعد خمس سنوات من البعثة، ومن المشهور أنَّ ثلاث سنوات من هذه الخمس قد انقضت في الدعوة السريَّة الخاصة، ولم يكن النبي صلَّى الله عليه وآله قد جهر فيها بدعوته، فبقيت منها ستان فقط، ومن الواضح أنَّ هذه المدة لا تكفي - بحسب العادة - لإقامة الحجَّة على الجميع، سيما وأنَّ المعجزة القرآنية الخالدة - التي تحدَّى بها المشركين - لم يبدأ نزولها إلا مع بدء الدعوة العلنية، وقد طال نزولها قرابة عشرين سنة، وعليه فمن كان على الحنيفة في بدء الدعوة، فهو باقٍ عليها، ولا يُحكم عليه بالكفر ما دام في فترة (مهلة النظر)، كما يُعبَّر الكلاميون.

وهذا كله فيما لو بنينا على وقوع ولادتها الشريفة عليها السلام بعد البعثة بخمس سنوات، وأما لو بنينا على ما بنى عليه الشيخان الجليلان المفيد والطوسي (قدس سرهما) من ولادتها عليها السلام بعد البعثة بستين^(٩)، فإنَّ الأمر سيكون أجلى وأوضح، إذ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ حينها لم يجهر بدعوته المباركة.

والحاصل: فاحتمال أنَّ تلکم النسوة كنَّ على الحنيفة ليس بالبعيد، وهنَّ محكومات بعدم الكفر إما لعدم بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ حينها للعموم، وإما لعدم قيام الحجَّة عليهنَّ، باعتبار أنَّ الدعوة عند ولادة الصديقة الطاهرة عليها السلام قد كانت في بدايتها.

أضف إلى ذلك: أنَّ من المحتمل جداً أن تكون القضية قد تمَّت بتخطيط إلهي من أجل إبراز مكانة الصديقة الكبرى وأمَّها

(٩) بحار الأنوار: ٤٣ / ٩، المصباح: ٥٥٤.

الطاهرة عليها السلام لنساء قريش، بمعنى أنَّ الله تعالى قد ألهم السيِّدة خديجة عليها السلام أن تبعث لقوابل النساء آنذاك، وهو يعلم بما ستتفق عليه كلمتهنَّ، وهذا الاتفاق - بحسب مجريات الأمور الطبيعية - سيتمُّ تناقله بين النسوة، ويشيع في مكَّة، ممَّا سيبعث على التساؤل لاحقاً - حين السماع بوضع السيِّدة خديجة عليها السلام لجنينها - عن القابلة التي قامت بتقبيلها، وحينها سيصعق الجميع بالحدث العظيم الذي وقع عند ولادة سيِّدة العالمين عليها السلام.

السؤال الثاني: كيف حزنَت السيِّدة خديجة عليها السلام على رفضهم حزنًا شديدًا؟ أين مقامها إذا عليها السلام من ذلك؟ أين كانت السيِّدة فاطمة بنت أسد عليها السلام من هذه الولادة، حتى يستدعى القوابل المشركات؟ ألم يخبرها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أثناء حملها بها بأنها النسلة الميمونة، وأنَّ ذريته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ منها؟ وهل كانت خديجة تفعل شيئاً

بدون إذن رسول الله أو بدون استشارته ﷺ... والحديث يطول؟!!

الجواب:

ويمكن أن يُجاب عن هذا التساؤل: بأنَّ الرواية قد عبّرت عن حال السيِّدة خديجة (عليها السلام) بعد موقف القوايل بأنّها (اغتمّت)، والغمُّ حالة طبيعية لا تتنافى مع عظمة المقام، فإنَّ أعظم المقامات هو مقام النبي الأعظم ﷺ، ومع ذلك فإنَّ القرآن الكريم قد أثبت له هذه الحالة وأمثالها على إثر مواقف المشركين، ونقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١٠)، وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ

(١٠) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

يَجْحَدُونَ»^(١١)، وكذا في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾^(١٢).

وعلى ذلك، فلا غرو أن تُصاب السيدة خديجة عليها السلام بمثل ذلك، حين تواجهها نساء قومها بموقفٍ عدائي غير مبرر، وهذا لا يُنقص من قدرها ومقامها شيئاً على الإطلاق، بل الأمر بعكس ذلك، فإنَّ سرَّ مقاماتهم الجليلة عليهم السلام يعود إلى شدة صبرهم على مثل هذه المواقف المؤلمة، ورسوخ قدمهم في المصائب الفادحة، وتسليمهم فيها الأمرَ لله تعالى، ولولا أنَّهم كانوا يتألمون ويحزنون لما كان لصبرهم فضلٌ ومزيةٌ.

(١١) سورة الأنعام، الآية: ٣٣.

(١٢) سورة المائدة، الآية: ٤١.

وإن قلت: إنَّ قياس حزن السيِّدة خديجة (عليها السلام) على حزن النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) قياسٌ مع الفارق؛ فإنَّ حزنه كان على قومه، بينما كان حزنها - بحسب الرواية - لنفسها، وهذا ما ينبغي إجلالها عنه.

قلت: مع غُضِّ النظر عن مسألة أنَّ الحزن لأجل النفس هل يتنافى مع المقام أم لا، فإنَّ الرواية لا ظهور لها في رجوع حزنها (عليها السلام) إلى نفسها، بل يُوجد في الرواية ما يشهد صريحاً بـ رجوع حزنها للنبي (صلى الله عليه وآله) حيث قالت: «وكان جزعها وغمّها حذراً عليه (صلى الله عليه وآله)، ولا شكَّ أنَّ هذا الحزن من أعظم المقامات والكمالات.

وإنَّ أبيتَ عن ذلك، وقلت: إنَّ الفقرة المذكورة تتحدَّث عن حزنها في مرحلة ما قبل حملها بالصدِّيقة الطاهرة (عليها السلام).

قلت: لا مانع أن يكون حزنها اللاحق كالسابق؛ إذ لا يُوجد في الرواية ما يشهد بخلافه، إن لم يُدَّعَ وجود ما يشهد بالوفاق،

وهو قولها: «تحدّثها من بطنها وتصبرّها»، فإنّ الظاهر من هذه الفقرة أنّ حزنها للنبي صلّى الله عليه وآله كان مستمرّاً، ولذا كان من وظائف الصديقة الطاهرة عليها السلام تصبير أمّها على ذلك، وفي هذا من الدلالة على عظمة شأن الجنين ما لا يخفى؛ إذ كيف لجنين في بطن أمّه أن يعلم بمفاتيح نفسها ليقوم بمهمة طمأننتها وتصبيرها وإسباغ السكينة عليها، إلّا أن يكون هذا الجنين قد حاز مقاليد النفوس وأرخت عنانها إليه.

وإنّ أبيت عن ذلك أيضاً، فمن الممكن أن يكون حزنها عليها السلام لأجل جنينها المقدّس بعد أن أخبرها عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله بما أخبره به جبرائيل عليه السلام، وقال: «وأنها النسلة الطاهرة الميمونة، وإنّ الله تبارك وتعالى سيجعل نسلي منها، وسيجعل من نسلها أئمة، ويجعلهم خلفاءه في أرضه بعد انقضاء وحيه»، فإنّ مثل هذا

الجنين يستحق الاستنفار والاستعداد بكل ما يضمن سلامته وحفظه، ولا شك أن إحدى مقدمات تحقيق هذا الأمر هي حضور القوابل الخيرات بشؤون التوليد، ولذا فمن الطبيعي جداً أن يكون امتناعهن عن الحضور باعثاً على حزن السيِّدة خديجة (عليها السلام) وغمّها.

وأما أين كانت السيِّدة فاطمة بنت أسد (عليها السلام)؟ وهل كان ذلك باستئذان رسول الله ﷺ أم لا؟ فهذه تساؤلات لم تتعرض لها الرواية نفيًا ولا إثباتًا، ولكننا نقطع باستئذائها له ﷺ، ولا مشكلة في البين، بعد الذي أوضحناه سالفًا، كما أن وجود السيِّدة المطهَّرة فاطمة بنت أسد (عليها السلام) لا ينفي وجود الحاجة للقوابل، لكونهن ذوات اختصاص في هذا المجال.

السؤال الثالث: وهل كانت العرب تستخدم عبارة يتيم كما

في الرواية على سن مثل سن رسول الله صلى الله عليه وآله؟

الجواب:

ويمكن أن يُجاب عن هذا التساؤل ببيان أمرين:

أ- الأوّل: إنّ لفظ (اليتم) لو سلّمنا عدم صحّة إطلاقه على من جاز حدّ البلوغ، فأقصى ما هنالك أنه لا يصحّ إطلاقه عليه بنحو الحقيقة، وهذا لا يمنع من صحّة إطلاقه عليه بنحو المجاز، وقد وقع مثل ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾^(١٣)، فإنه تعالى قد أمر بإعطاء اليتامى

(١٣) سورة النساء، الآية: ٢.

أموالهم، ومن ضرورة الفقه أن ذلك لا يكون إلا إذا بلغوا سنّ التكليف والرشد، ومع ذلك فإنه قد عبّر عنهم بـ(اليتامى).

ب- الثاني: إن التعبير المذكور ليس حكراً على هذه الرواية، فهو واردٌ في رواياتٍ أخرى صحيحة ومعتبرة، ومنها: حسنة الكناسي، التي يرويها ثقة الإسلام الكليني طاب ثراه، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن محبوب، عن جميل بن صالح، عن يزيد الكناسي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان نزل على رجلٍ بالطائف قبل الإسلام فأكرمه، فلما أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس قيل للرجل: أتدري من الذي أرسله الله عز وجل إلى الناس؟ قال: لا. قالوا له: هو محمد بن عبد الله، يتيم أبي

طَالِبٍ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ نَزَلَ بِكَ بِالطَّائِفِ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا
فَأَكْرَمْتَهُ»^(١٤).

ولعلَّ إطلاقهم لهذا العنوان (يتيم أبي طالب) على النبي
الأعظم صلَّى الله عليه وآله بلحاظ ما كان قد أبداه أبو طالب عليه السلام من عظيم
الكفالة للنبي وشديد العناية به، حتى أنَّه كان يقدِّمه على سائر
أولاده، فصار لشدة التصاقه به يُعرف بالوصف المذكور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين



الفهرس

المقدّمة	٢
١ / نصُّ رواية الولادة	٤
٢ / الإشارات	٩
٣ / الملاحظات	١٦
٤ / أسئلة وأجوبة	٢٩
الفهرس	٤١